النّحو العربّي بين المعرفة العلّميّة والنّزعة التّعليميّة
ـدراسة وصفيّة تحليليّةـ

Arabic grammar between scientific knowledge and educational orientation Analytical descriptive study

أ. تجاني حبشي‡

تاريخ الاستلام: 23-04-2019 تاريخ القبـول:22-01-2020

ملخّص: حاولت الورقة البحثيّة على امتدادها أن تقدّم تصورا عاما عن النّحو العربي فتناولت مفهومه وعوامل نشأته ومستوياته وأهميّة تعليمه وتعلّمه وخلّصت إلى أنّ النّحو العربي ليس علّما صرفا قائما على قواعد جامدة أو قوالب ساكنة لا تقبل التّغيير ولا نحوا تعليميا محضا، فهو يتّسع لهما معا كونهما متعاضدين متكاملين لاسيما إذا علّمنا أنّه لا تعارض في حضور الغايّة العلّميّة إلى جانب الغايّة التّعليميّة فالنّحاة احتاجوا إلى وسيلة تصون صرح اللسان العربي فتوصلوا إلى علّم قائم بذاته له أصوله ومناهجه، فهم وإن كانوا يقصدون تلقين الفصاحة، ووضع حد لعيوب اللحن أو العيّ أو الخطل في اللغة الذي يمكن أن يقع فيها النّاطق بالعربيّة، فإنّهم وجدوا أنفسهم يكشفون أسرار اللغة العربيّة، ويفسرون حقائقها بطريقة علّميّة، ويفهمون معاني القرآن الكريم ويستنبطون أحكامه ومضامين الأحاديث النّبويّة الشّريفة ودلالاتها عن درايّة وعلّم ويوجهون المتكلّمين إلى تعلّم ما يوفّر لهم الاستعمال الجيد للعربيّة.

كلمات مفتاحيّة: النّحو العلّمي، النّحو التّعليمي، تيسير النّحو.

Abstract: Throughout the paper attempted to present a general view of Arabic grammar.And the importance of teaching and learning, and concluded that Arabic grammar is not a science based on rigid rules, or Static templates do not accept change and not purely ,educational it is possible fo them to be mutually complementary, Especially if we know that it does not oppose the presence of the scientific objective In addition to the educational goal , the female students needed a means to

‡جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، البريد الإلكتروني: habchi jani@gmail.com (المؤلّف المرسل).

preserve the Arabic language, so they came to a standalone science with its origins and methods . If they intended to teach eloquence, and to put an end to the melodies of the melody or the idiosyncrasies in the language in which the Arabic speaker could be located,Themselves reveal families And interpret the facts in a scientific way, and understand the meanings of the Koran and derive its provisions and the contents of the Prophet's Hadiths and their meanings familiarly and scientifically, and direct speakers to learn what provides them good use of Arabic .

Keywords: The grammar of Arab Scientific; Educational grammar rules; Facilitate the grammar.

المقدّمة: إنّ للغة قيمة جوهريّة كبرى في حياة كل أمّة، فهي الأداة التي تحمل الأفكار والتّصورات فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أفراد الأمّة، وهي التّرسانة الثّقافيّة التي تبني الأمّة وتحمي كيانها، ولم تكن اللغة أي لغة في يوم من الأيام مجرد أداة للتواصل بين أبنائها، أو بينهم وبين الآخر ولم تكن مجرد وعاء فكري ثقافي سياسي اجتماعي أدبي محايد...، وإنّما هي كل ذلك في صميم استمرار حياة الأمّة، وتجسيد روحها المميزة لها... فاللغة خطاب متعدّد الوظائف والأهداف.[1]

واللغة العربيّة تمثل مقوماً من أهم مقومات كياننا، فهي الحاملة لثقافتنا والمكون لبنيّة تفكيرنا وحلقة الوصل التي تربط الماضي بالحاضر، كيف لا وهي التي تمتاز عن اللغات العالميّة الحيّة، في كونها قديمة حديثة في آن واحد، عاصرت اليونانيّة واللاتينيّة والفارسيّة والسّنسكريتيّة واستطاعت بما تملكه من مرونة وخصائص متنوعة أن تستمر إلى اليوم ومن أهم تلكم السّمات قدرتها الفائقة على حساسيّة التّواصل فهي لغة غنيّة ودقيقة إلى حد كبير فقد استوعبت التّراثين العربي والإسلامي، كما استوعبت ما نقل إليها من تراث الأمم والشّعوب ذات الحضارة القديمة. يقول وليم ورل الأمريكي :«إنّ للغة العربيّة من اللين والمرونة ما

يمكنها من التّكيف وفق مقتضيات هذا العصر، وهي لم تتقهقر فيما مضى أمام أيّة لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وستحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي».[2] كما أنّها تتوافر على خصيصة لا نجدها في اللغات الأخرى وهي الدّيمومة والقوة والقدرة على الانتشار لأنّها لغة القرآن الكريم، فأضحت لغة عالميّة إذ استوعبت تجارب أمم وشعوب، تميزت بتعدّد مصادرها الثّقافيّة والفكريّة فعبرت عن كل ذلك الفيض الفكري بكفاءة نادرة فكانت لغة مهمة للمعرفة الإنسانيّة. [3]

ويعدّ النّحو دعامة علوم اللغة العربيّة وركيزتها الأساسيّة، وقد خصّه اللغويون الأوائل بعنايّة بالغة، وبذلوا قصارى جهدهم في سبيل إرساء قواعده تأسيسا وتأصيلا وحفظا وتطبيقا، اعتقادا منهم بأنّه ترياق شاف من كل عيوب اللحن أو العيّ أو الخطل في اللغة الذي يمكن أن يقع فيها النّاطق بالعربيّة، كل ذلك رغبة منهم في الحفاظ على سلامة اللغة العربيّة، وتوجيه المتكلّمين إلى تعلّم ما يوفر لهم الاستعمال الجيد لها، ويبقى الغرض العميق من وراء تأسيس النّحو العربي هو صيانة صرح اللسان العربي، فالعنايّة به عنايّة بكتاب الله تعالى ودراسته والتّمرس فيه عون على فهم معاني آيات القرآن الكريم واستنباط أحكامها، ومضامين الأحاديث النّبويّة الشّريفة ودلالاتها عن درايّة وعلّم.

ونتيجة لما يعانيه طلبة العلّم من البعد عن التّأصيل العلّمي الذي طبع النّحو العربي وتحت تأثر بعضهم بتلك الصّيحات الدّاعيّة تارة إلى تفضيل اللغات الأجنبيّة وتارة إلى الميل إلى استعمال اللهجة بدل الفصحى، وتارة أخرى بتصديق إدعاء صعوبة النّحو العربي، الأمر الذي دفعهم إلى العزوف عن تعلّم اللغة العربيّة بشكل عام ونحوها بشكل خاص، فراحوا ينشدون فكرة إعادة صياغة قواعد النّحو، ويتبنون مطلب تيسيره بحجة غموض مفاهيمه وصعوبة تطبيقها في الاستعمال، صار من الواجب على الغيورين على لغة الضّاد والمخلصين لها أن يبصروا طلبة العلّم بأهميّة اللغة العربيّة، ويحفزونهم على تعليمها وتعلّمها وتذوق حلاوتها وروعة بيانها.

وانطلاقا ممّا ذكر آنفا وسعيا إلى معرفة قيمة النّحو العربي وأهميته في صيانة صرح اللسان العربي ارتأيت أن يكون موضوع البحث هو: النّحو العربي بين المعرفة العلّميّة والنّزعة التّعليميّة. دراسة وصفيّة تحليليّة.

وقد تمحورت إشكاليته فيما يلي: يعد النّحو العربي دعامة علوم اللغة العربيّة وركيزتها الأساسيّة، وقد اعتنى به النّحاة الأوائل خوفا على اللسان العربي من محنة الانحراف، وكان ذلك حافزا قويا على القيام بحملة علّميّة قويّة استطاعوا من خلالها الانتقال من المعرفة السّليقيّة إلى المعرفة العلّميّة القائمة على التّصنيف والتّقعيد، غير أنّ ذلك لم يشفع لهم عند دعاة تيسير النّحو القدامى منهم والمحدثين من أن يوجهوا لهم النّقد في الكثير من القضايا.

وانطلاقا من هذا الإشكال تم طرح التّساؤلات الآتيّة:

هل النّحو العربي علّما صرفا قائما على قواعد جامدة أو قوالب ساكنة لا تقبل التّغيير؟ أم أنّه نحوا تعليميا محضا؟ أم أنّه يتّسع لهما معا؟ وهل ثمّة تعارض بين غايّة النّحو العلّميّة وغايته التّعليميّة.

أمّا عن هدف هذه الورقة البحثيّة فقد حصرته في مشاركة غيري من الباحثين في حقل اللسانيات جهدهم، ورجوت منها الإسهام–ولو بالجزء القليل–في تحقيق الغايّة المنشودة وهي إقناع طلبة العلّم بأهميّة اللغة العربيّة، وضرورة الإقبال عليها وعلى نحوها بالبحث والتّنقيب والفهم والاستيعاب.

وذلك بتناول بعض المفاهيم المرتبطة بالنّظريّة النّحويّة العربيّة، كمفهوم النّحو وعوامل نشأته ومستوياته ومنزلته، وأهميّة تعليمه وتعلّمه، وموقف كل من دعاة التّأصيل ودعاة التيسير. كل ذلك بأسلوب مناسب يجمع مختلف الآراء بتوثيقها وتحليلها بما تيسر ذكره وفق قراءة وصفيّة تحليليّة نسأل الله تعالى فيها التّوفيق والسّداد.

وقد سارت الدّراسة في عمومها على ضوء المنهج الوصفي، الذي أستعين به أثناء عرض مفهوم النّحو وعوامل نشأته ومستوياته وأهميّة تعليمه وتعلّمه كما أستعين بالمنهج التّحليلي أثناء مناقشة دعاوى دعاة تيسير النّحو. وهذا التّنوع في المناهج جاء رغبة في استجلاء الصّورة والإحاطة بأطراف الموضوع.

وانطلاقا ممّا أومأنا إليه ارتأى البحث تناول العناصر الآتيّة:

1-النّحو في إطاره اللغوي والاصطلاحي.

2-علاقة النّحو بالإعراب.

3-دواعي وضع النّحو.

4-مستويات النّحو.

5-قيمة النّحو وأهميته.

6-أهميّة المعرفة النّحويّة في اكتساب اللغة.

7-دعاوى التيسير بين سوء الفهم وانعدام التّقدير.

1-النّحو في إطاره اللغوي والاصطلاحي: أصل اشتقاق مصطلح النّحو إنما هو من نحا الشّيء ينحوه نحوا إذ قصده والنّحو الطّريق والجهة، ومنه النّحو لإعراب كلام العرب لأنّ المتكلّم ينحو به طريق كلامهم إفرادا وتركيبا... وقد روي عن أبي الأسود الدّؤلي لما عرض على الإمام علي-رضي الله عنه-ما وضعه فأقره بقوله: «ما أحسن هذا النّحو الذي قد نحوت»، فآثر العلّماء تسميّة هذا العلّم باسم النّحو استبقاء لكلمة الإمام.[4]

أمّا في العرف الاصطلاحي فاستعمالات مصطلح النّحو في التّراث النّحوي متعدّدة ومتنوّعة فقد أطلق على مفاهيم مختلفة منها؛ العربيّة فقد ورد في طبقات النّحويين لأبي بكر الزّبيدي أن ابن نوفل روى عن أبيه أنّه سأل أبا عمرو بن العلاء: "أخبرني عمّا وضعت ممّا سميته

عربيّة، أيدخل فيه كلام العرب كلّه؟ فقال: لا فقلت: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر.[5] ومنها علّم العربيّة كما جاء في قول أبي عبيدة معمر بن المثنى: « أخذ أبو الأسود عن ابن أبي طالب رضي الله عنه العربيّة ».[6]ومنها كذلك الكلام فأبو الأسود الدّؤلي عندما سمع اللحن في كلام بعض الموالي قال:« هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه، وصاروا لنا إخوة، فلو علّمناهم الكلام. فوضع باب الفاعل والمفعول، لم يزد عليه ».[7]

2-علاقة النّحو بالإعراب: وقد حصل تداخل كبير بين مصطلحي النّحو والإعراب، فمن النّحويين من يقصره على الإعراب فلا يكاد يتجاوزه ومنهم على سبيل التّمثيل لا الحصر الزّجاجي (ت337 هـ) الذي يقول:« ثم إنّ النّحويين لما رأوا في أواخر الأسماء والأفعال حركات، تدلّ على المعاني وتبين عنها سموها إعرابا أي بيانا، ويسمّى النّحو إعرابا والإعراب نحوا سماعا لأنّ الغرض طلب علّم واحد». [8] منهم من يجمع بين النّحو والإعراب نذكر منهم من باب التّمثيل أبا علي الفارسي الذي يرى أن:« النّحو علّم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، وهو ينقسم على قسمين، أحدهما تغيير يلحق أواخر الكلم والآخر تغيير يلحق ذوات الكلم وأنفسها».[9] بينما هناك من يعطي للنحو مفهوما شاملا كابن جني (ت392هـ) الذي عرفه بأنّه:« انتحاء سَمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتّثنيّة والجمع والتّحقير والتّكسير والإضافة والتّنبيه والتّركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربيّة بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها ردَّ به إليها».[10] فمعظم النّحاة والدّارسين يقدمونه على بقيّة حدود النّحو العربي الأخرى فالسّيوطي مثلا في كتابه الاقتراح يقدّمه على تعاريف كل من صاحب المستوفي والخضراوي، وابن عصفور وصاحب البديع وكذا ابن السّراج. [11] فالنّحو عند ابن الجني[12]:

–لا يقف عند حدود الإعراب والبناء، فهو من هذا المنطلق لا يكاد يتجاوز حدود الشّكل والحركات التي تلحق أواخر الكلمات، بسبب أثر العوامل في معمولاتها بل يتجاوز ذلك إلى ما يعرف بالتّركيب والصّرف؛

–أنّه وسيلة عمليّة لتمثل مختلف بنيات اللغة، من أجل امتلاك الملكة اللسانيّة الخاصّة باللغة العربيّة [13]؛

–أنّه يجمع بين المعرفة اللغويّة النّظريّة وكيفيّة ممارسة اللغة، من خلال تمثل مختلف أنماط وأساليب الكلام التي سمعت عن العرب، أو ما قيس على تلك الأساليب.

3–دواعي وضع النّحو: وردت روايات شتى تتحدث عنه من جوانبه المختلفة تتحدّث عن واضعه، وعمّا وضع منه أوّل الأمر وعن سبب وضعه. وقد أجمع الباحثون على أنذ نشأة النّحو العربي كانت بفعل اللحن، وهو ظاهرة عرفتها اللغة العربيّة بعد الفتوحات الإسلاميّة نتيجة احتكاك العرب بأمم أخرى يقول حلمي خليل : « فاللحن في نظر الكثير من الباحثين قديما وحديثا، كان هو السّبب المباشر للنظر في اللغة والبحث فيها».[14] ويعتبر اللحن الباعث الأوّل على تدوين اللغة وجمعها وعلى استنباط قواعد النّحو وتصنيفها، خاصّة بعد استفحال خطره على مر الأيام وقد التّقى ذلك مع مقت العرب له أشد المقت فهو في نظرهم منقصة تزري بصاحبها لا في مطلع الإسلام فحسب، ولكن فيما تلاه كذلك من أمد بعيد. فاللحن انحراف عن الصّواب، وهروب من ضوابط اللغة، ويكفي أن يوصف اللحن بالضّلال لأنّه غاب عنه دليل الهدف ونور الإرشاد. فعن أبي الدّرداء قال:» سمع النّبي صلّى الله عليه وسلّم رجلا قرأ فلحن قال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل» [15].

وكان أوّل ظهور اللحن في الإعراب وأواخر الكلمات التي تختلف المعاني باختلافها، ثم امتد إلى الصّيغ والأبنيّة ومن أمثلة النّوعين. قال ياقوت: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يسيئون الرّمي فقرعهم، فقالوا : إنّا قوم متعلّمين. فأعرض مغضبا، وقال: والله

لخطؤكم في لسانكم أشد عليّ من خطئكم في الرّمي [16]. والذي يعنينا أنّ شيوع ظاهرة اللحن على السّنة النّاس جعلت الإمام علي–رضي الله عنه–يكلف أبا الأسود الدّؤلي ويوحي إليه بعمل شيء يعصم السّنتهم ويقيهم من الوقوع في اللحن وأن هذه البدايّة التي ابتدأها أبو الأسود ظلت محدودة الأثر حتى أمره الخليفة زياد بن أبيه لعمل شيء يصلح به النّاس كلامهم ويعربون كتاب الله.

ورغم إجماع الباحثين حول دور اللحن في نشأة النّحو إلاّ أنّ ابن خلدون يرجع سبب وضعه إلى الخشيّة من ذهاب ملكة اللغة. يقول: «وأوّل من كتب فيه أبو الأسود الدّؤلي ويقال بإشارة من علي–رضي الله عنه–لأنّه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ثم كتب فيها النّاس من بعده، وكان النّاس أحوج إليها لذهاب الملكة من العرب فهذب الصّناعة وكمل أبوابها».[17]ويقول في موضع أخر:

« استنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة المطردة شبه الكليات والقواعد التي يقيسون عليها سائر أنواع الكلام. ويلحقون الأشباه بالأشباه؛ مثل أنّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغير الدّلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسميّة الموجب لذلك التّغير عاملا، وأمثال ذلك. وصارت كلّها اصطلاحات خاصّة بها فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلّم النّحو» [18] .

بينما ذهب عبده الرّاجحي إلى أنّ النّحو نشأ بفعل عامل آخر هو عامل الفهم وتحديدا فهم القرآن الكريم، ذلك أنّ المسلّمين عربهم وعجمهم عرفوا بدايّة أنّ عليهم أن يقرأوا القرآن وأن يفهموه وفرق كبير بين علّم يسعى لفهم النّص ونص يسعى لحفظه من اللحن، ولو كانت الغايّة منه حفظ النّص من اللحن لمّا أنتج العرب هذه الثّروة الضّخمة في مجال الدّرس النّحوي[19]. فبمعرفة النّحو يعقل عن الله عزّ وجلّ كتابه، وما استوعاه من حكمة واستودعه من آياته المبينة وحججه المنيرة وقرآنه الواضح ومواضيعه الشّافيّة، وبه يفهم عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم آثاره المؤديّة لأمره ونهيه وشرائعه وسننه، وبه يتّسع المرء في منطقه[20].

ومن خلال ما ذكر يمكن استنتاج الملاحظات الآتيّة:

1–إنّ اللحن في المصحف لم يكن هو الدّافع الحقيقي لوضع النّحو كما هو شائع بل هو مسألة افتعلها الخليفة زياد بن أبيه ليستفز أبا الأسود ليصنع شيئا كان متحرزا منه لينجو به أبناء زياد من اللحن، ذلك أنّ قراءة المصحف كانت وماتزال تؤخذ مشافهة عن القراء ولم تؤخذ عن المصحف فقط.

2–أنّ وضع النّحو بدأ بإيعاز من المسؤولين العرب الذين كانوا يحرصون كل الحرص على سلامة العربيّة، ويعنون بها عنايّة بالغة.

3–انحصر عمل أبو الأسود في بدايّة قيامه بمهمة وضع النّحو بعدما انتدبه الخليفة زياد بن أبيه لذلك في وضع «شيء يكون للناس إماما ويعرف (لعلها يعرب) به كتاب الله ».[21] أن بدأ بإعراب القرآن، أي رسم الشّكل الذي عرف قديما بنقط أبي الأسود. وهذا معناه أنّ العربيّة التي أخذها النّاس عن أبي الأسود اقتصرت على إقراء القرآن الكريم ورسمه مضبوطا بالشّكل الذي وضعه، ولم يكن دوره هو وضع النّحو بمعناه الاصطلاحي.

واستجلاء لنشأة هذا العلّم؛ فإنّه وباعتباره فرعا من فروع الدّراسة اللغويّة فهو متأخر في ظهوره مقارنة بأنحاء الأمم الأخرى التي ظهرت فيها الدّراسات اللغويّة باكرا، حيث عرف لبعضها دراسات لغويّة راسخة قبل الإسلام بقرون.[22] والدّليل على تأخره يتمثل في عدم مؤاثرة العرب لأي نوع من الدّراسات اللغويّة قبل الإسلام. [23] ثم إنّ هذا العلّم عرف تأخرا آخر مقارنة مع ظهور العلوم الشّرعيّة يقول أحمد مختار عمر:«لم يكن البحث اللغوي عند العرب من الدّراسات المبكرة التي خفوا لها سراعا لأنّهم وجهوا اهتمامهم أوّلا إلى العلوم الشّرعيّة وحين فرغوا منها أو كادوا اتجهوا إلى العلوم الأخرى ».[24] وتأخّر هذا العلّم نجده حتى بالنّسبة لغيره من الدّراسات اللغويّة العربيّة كـ: "جمع اللغة"، يقول أحمد مختار عمر:« أمّا البحث النّحوي فلا شكّ أنّه بدأ متأخّرا عن جمع اللغة لأنّه لا يمكن القيام به دون مادة توضع تحت تصرّف

النّحوي، وبعبارة أخرى لأنّ تقعيد القواعد ما هو إلاّ فحص لمادة لغويّة تم جمعها بالفعل ومحاولة لتصنيفها واستنباط الأسس والنّظريات التي تحكمها » [25].

ومهما اختلفت البواعث فإنّها كانت كافيّة لاستثارة همم العلّماء، واستلهام تفكيرهم في العنايّة باللسان العربي خوفا عليه من محنة الانحراف، وكانت حافزا قويا على القيام بحملة علّميّة قويّة استطاع النّحاة من خلالها الانتقال من المعرفة السّليقيّة إلى المعرفة العلّميّة القائمة على الوصف والتّصنيف والتّقعيد. وقد بدأ النّحو ينمو نموا متدرجا، وكان في نشأته محدود الدّائرة ثم أخذ هذا الميدان في نظر عبد العزيز عتيق يتّسع عن طريق اهتمام العلّماء بتمحيص مسائله ومباحثه وتدوين هذه المسائل والمباحث في كتب خاصّة بالنّحو، وظلّت هذه الكتب تتدرج وتنمو حتى وصلت إلى ما بأيدينا الآن من كتب ألمت بجميع أطراف البحوث النّحويّة، ووصلت في تمحيصها إلى أعمق حدود البحث والاستيعاب.[26] واستمر العلّماء في دراسته حتى ترعرع بعد ذلك واشتد عوده، وتعدّدت الآراء والمذاهب حول مسائله، الأمر الذي أدّى إلى ظهور مدارس لها مؤسّسوها وعلّماؤها ولها أساليبها ومقايسها واستنتاجاتها.

4-مستويات النّحو: إنّ المتتبع لتاريخ نشأة النّحو العربي يدرك أنّ له مستويين هما: المستوى العلّمي والمستوى التّعليمي. حيث يوجه المستوى الأوّل إلى المختصين من الباحثين الذين وهبوا أنفسهم للبحث والتّنقيب في أدق دقائق النّحو.[27]هو مستوى ارتبط بمرحلة التّأصيل الذي هو مستوى تفسيري نظري مبني على التّأويل والاعتراض ويسعى إلى وضع الأصول والمبادئ الصّوريّة للنظريّة النّحويّة وتفسيرها، بغيّة فهم الطّابع البنوي للغة العربيّة، وقد اعتمد منظروه على مبدأ استنباط القوانين والأحكام من النّصوص اللغويّة الأكثر استعمالا وترك ما هو نادر وشاذ التّداول، فقد ورد في طبقات النّحويين لأبي بكر الزّبيدي أنّ ابن نوفل روى عن أبيه أنّه سأل أبا عمرو بن العلاء : « اخبرني عمّا وضعت ممّا سميته عربيّة، أيدخل فيه كلام العرب كلّه؟ فقال لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب، وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر».[28] وهو ما يفسر بأنّ اللغويين العرب القدامى أسسوا منهجهم على مبدأ

تقصي الواقع اللغوي، وتتبع المنجز من الكلام عن طريق الاتصال المباشر بالمتكلّمين والسّماع من أفواههم، معتمدين على الوصف القائم على الملاحظة المباشرة واستقراء المادة اللغويّة بغيّة استنباط القواعد الكليّة منها.

في حين ارتبط المستوى الثّاني بالتّقعيد، الذي هو عبارة عن ضوابط استعماليّة وهو ذو صبغة عمليّة، يمكن التّدليل عليه بما يوفره الاستعمال بوجه خاص ويسعى إلى استغلال هذه القواعد لأغراض تعليميّة بحتة، ليلحق غير العربي بأهل العربيّة في الفصاحة والبيان وهو ما يتجلى من خلال مقولة ابن جني التي حدد فيها ماهيّة النّحو إذ يعتبره :«ليلحق من ليس من أهل اللغة العربيّة بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها ردَّ به إليها».[29] ويتّضح من هذه المقولة أنّ النّحو العربي قد أسّس على أساس معياري بالدّرجة الأولى ونفعي بالدّرجة الثّانيّة حيث سعى إلى اكتساب القدرات اللغويّة التي كانت شائعة بين أوساط المجتمع العربي ولا يمكن تحقيق هذا الاكتساب إلاّ بواسطة التّعليم والتعلّم، سواء أكان المتعلّم عربيا ضعفت سليقته أم أعجميا جاهلا للسان العربي، وهذا المستوى يمثل المستوى التّعليمي "الوظيفي" ويهدف إلى تلقين العلوم والملكات للمتعلّمين ويحتاج إلى وسائل خاصّة تختلف عمّا يحتاجه المستوى العلّمي، إذ يعمد إلى الاستعانة بالوسائل التّعليميّة وطرائق التّدريس ومعرفة حاجيات المتكلّمين وقد تمازج هذان المستويان بصفة جليّة في مرحلة الإبداع والتّأصيل التي تمتد إلى أواخر القرن الثّالثّ الهجري تمازج فرضته طبيعة ودواعي نشأة النّحو العربي نفسه.

وقد بدأت الدّراسات النّحويّة مع حلول القرن الرّابع الهجري تميل إلى الصّناعة المعقدة وذلك بسبب انبهار أصحابها بالثّقافات الدّخيلة على الثّقافة العربيّة الأمر الذي انعكس سلبا على الدّرس النّحوي، الذي تأثر بمصطلحات علّم الكلام والمنطق والفلسفة حتى صار النّحو فنا مقصودا بذاته فاستحال بذلك مفهوم النّحو ووظيفته إلى ضرب من الصّناعة والمهارة، وابتعدّ بذلك عن الواقع اللغوي الاستعمالي، وهو الأمر الذي جعل النّحو في أغلب الأحيان غريبا

عن طبيعة اللغة وجوهرها، وليس أدل على هذا من مقولة أبي علي الفارسي(ت395هـ) التي انتقد فيها منهج الرّماني(ت384هـ) في تناول مسائل النّحو فقال: « إن كان النّحو ما يقوله الرّماني فليس معنا منه شيء وإن كان ما نقوله فليس معه منه شيء».[30] بل تجاوز الأمر ذلك إلى انصراف طائفة من المحدثين والفقهاء إلى توجيه النّقد للنحويين، بحجّة جنوح النّحو إلى كثرة العلل والأقيسة والى تشعب مسائله وأصوله وغيرها. يقول ابن فارس:« وقد كان النّاس قديما يتجنبون اللحن فيما يكتبونه ويقرؤونه اجتنابهم بعض الذّنوب، فأمّا الآن فقد تجوزوا حتى أنّ المحدث يحدّث فيلحن والفقيه يؤلّف فيلحن فإذا نبها قالا: ما ندري ما الإعراب، وإنّما نحن محدثون وفقهاء، فهما يسيران بما يساء به اللبيب». [31]وقد رد الجرجاني على هذه الطّائفة التي استهجنت النّحو واصفا إياها بالجاهلة يقول :« أمّا النّحو فظنّته ضربا من التّكلف، أو بابا من التّعسف، أو شيئا لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على العقل، وأنّ ما زاد منه على معرفة الرّفع والنّصب وما يتصل بذلك ممّا تجده في المبادئ فهو فضل لا يجدي نفعا، ولا تحصل منه على فائدة، وضربوا له المثل بالملح إلى أشباه لهذه الظّنون في القبيلين، وآراء لو عرفوا مغبتها وما تقود إليه لتعوذوا بالله منها ولأنفوا لأنفسهم من الرّضا بها، وذلك بإيثارهم الجهل بذلك على العلّم في معنى الصّاد عن سبيل الله والمبتغي إطفاء نور الله تعالى».[32] وقال في ذات الموضع :«وأمّا زهدهم في النّحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه...، ولا ينكر ذلك إلاّ من ينكر حسّه وإلاّ من غالطّ في الحقائق نفسه».[33]ولعل ذلك ما دفع بالغيورين من أهل العربيّة آنذاك إلى التّفكير في إنشاء نحو جديد خال ممّا علق به من شوائب وقائم على التيسير واليسر، وذلك سعيا منهم لتقريب النّحو من المتعلّمين دون إشغال قلب المتعلّم منه إلاّ بمقدار ما يؤدي إلى السّلامة من فاحش اللحن. يقول الجاحظ:» أمّا النّحو فلا تشغل قلب الصّبي منه، إلاّ بقدر

ما يؤديه إلى سلامة من فاحش اللحن».[34] الأمر الذي نتج عنه توجه بعض النّحاة إلى التّأليف في ما سمّي بالنّحو التّعليمي.

وتعتبر محاولة خلف بن حيان الأحمر البصري التي تجسدت في رسالة سماها "مقدّمة في النّحو" من المحاولات الرّائدة للتأسيس لنحو تعليمي فقد حاول في رسالتّه تيسير النّحو للمتعلّمين، وتيسيره من الصّعوبات الكامنة في مسائله وقواعده ليستغني به المتعلّم عن التّطويل والتّعليل في قواعد النّحو.[35] وقد عبّر عن سبب تأليفه لها بالقول:«لما رأيت النّحويين وأصحاب العربيّة أجمعين قد استعملوا التّطويل وكثرة العلل وأغفلوا ما يحتاج إليه المتعلّم في النّحو من المختصر والطّرق العربيّة والمأخذ الذي يخفى على المبتدئ حفظه ويعمل في عقله، ويحيط به فهمه فأمعنت النّظر في كتاب أؤلّفه وأجمع فيه الأصول والأدوات، والعوامل على أصول المبتدئين ليستغني به المتعلّم عن التّطويل فعملت هذه الأوراق فمن قرأها وحفظها وناظر عليها علّم أصول النّحو كلّه ممّا يصلح لسانه في كتاب يكتبه أو شعر ينشده أو خطبة يلقيها أو رسالة يؤلفها». [36]وممّا يفهم من هذا هو أنّ النّحو عنده لا ينبغي أن يكون غايّة في ذاته بل هو وسيلة لإكساب المتعلّمين ملكة لسانيّة في اللغة العربيّة.

وقد توالت المحاولات التي تتبنى هذا التّوجه، وذلك كمحاولة أبي عمر صالح بن إسحاق الجرمي(ت225ه) في كتابه" مختصر نحو المتعلّمين" وأبي عباس محمّد بن يزيد المبرد (ت285ه) في كتابه "المدخل في النّحو"، والزّجاجي (ت337ه) من خلال مؤلّفه" الجمل" وأبي جعفر النّحاس (ت338ه) من خلال كتابه " التّفاحة في النّحو"، وأبي بكر الزّبيدي (ت379ه) في كتابه "الواضح في علّم العربيّة". ناهيك عن بعض النّحاة الذين عكفوا على تأليف بعض الشّروحات والمختصرات لكتاب سيبويه، كل ذلك بهدف تعليم النّحو للمتعلّمين بأسلوب سهل وواضح، بعيدا عن الغموض والتّعمق والإطالة التي طبعت النّحو في مراحل التّأسيس الأولى.

ومن نافلة القول نقول؛ إنّ توسّع النّحو العربي القديم لا يقف عند حدود ضم المستويين المتعاضدين السّابقين(العلّمي والتّعليمي)، فهو يحتاج إلى علوم أخرى فرعيّة تابعة له منضويّة تحته، وتناسبها أو عدمها يخل بحقيقته، منها علّم أصول النّحو وعلّم الجدل النّحوي وكذا النّقد النّحوي، والعلّمان الأوّلان وضعهما ابن الأنباري وألحقهما بعلوم الأدب يقول السّيوطي في الاقتراح: «علوم الأدب ثمانيّة: اللغة النّحو والتّصريف والقوافي وصنعة الشّعر أخبار العرب وأنسابهم، وألحقنا بالعلوم الثّمانيّة علّمين وضعناهما علّم الجدل في النّحو، وعلّم أصول النّحو» [37].

ومع حلول القرن الخامس الهجري–الذي كان فاصلا بين عهدي الازدهار والانحطاط– تمكن عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) من إنقاذ النّحو من الحال التي آل إليها، وسعى إلى رد الاعتبار له، وأعاد للنحو شطره الثّاني الذي فصلته الدّراسات النّحويّة السّابقة عنه والمتمثل في المعاني النّحويّة التي ألحقت بعلوم البلاغة باسم علّم المعاني. يقول: « واعلّم أنّ ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علّم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها».[38] ويقول في موضع آخر مبينا طبيعة العلاقة بين النّظم وعلّم النّحو وموضحا أثر إغفال النّحو في ترتيب تلك الكلمات وفقا للمعاني التي تجول في النّفس:« وإنّك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النّحو لم تكن صنعت شيئا تدعى به مؤلّفا»[39].

بل يذهب إلى وجوب معرفة قواعد نظام اللغة، التي تمكن صاحبها من امتلاك قدرة لغويّة متميزة، تساعده على تأليف الألفاظ ثم المعاني، فليس نظم الألفاظ في حقيقة أمره إلاّ نظما للمعاني. يقول :« والمتكلّم يجري في استعماله اللغوي على نظام مخزون في ذهنه أنّه لا يتصوّر أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظا ترتيبا، ولأنّك تتوخى التّرتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك

اتبعتها الألفاظ وقفوت بها أثارها، وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتاج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب بحكم أنّها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، وأنّ العلّم بمواقع المعاني في النّفس علّم بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النّطق ».[40] ومن خلال الجهود التي بذلها الجرجاني في هذا الباب؛ يكون قد تمكن من تأسيس اتجاه جديد في الدّراسات اللسانيّة العربيّة يقوم على مبدأ الوظيفة، باعتباره أهم مبدأ تقوم عليه اللغة البشريّة كوسيلة للتبليغ والبيان عن المعاني.

5-قيمة النّحو وأهميته: علّم النّحو من أسمى العلوم قدرا، وأنفعها أثرا، به تثقف أود اللسان ويسلس عنان البيان، وقيمة المرء فيما تحت طي لسانه لا طيلسانه وهو من أهمِّ العلوم وأنفسها فهو مفتاح البيان، وميزان اللسان ومحكُّ اعتدال الأفهام والأذهان وهو قانون اللغة وميزان تقويمها، ودعامة العلوم العربيّة وقانونها الأعلى ولن تجد منها علّما يستقل بنفسه عنه أو يستغنى عن معونته، أو يسير بغير نوره وهداه فهو: «من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب الإعراب، الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما تميز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام ولا نعت من توكيد».[41] وقد عده ابن خلدون من أهم علوم اللسان البشري يقول : «أركان اللسان العربي أربعة : اللغة والنّحو والبيان والأدب وإنّ الأهم المقدّم منها هو النّحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدّلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة».[42] فهو ترياق شاف من كل عيوب اللحن أو العيّ أو الخطل في اللغة الذي يمكن أن يقع فيها النّاطق بالعربيّة .

ومثل هذه الآراء المنوهة بأهميّة النّحو العربي لم تصدر من لدن النّحاة العرب القدامى فقط بل نجدها صادرة عن اللغويين العرب المحدثين أيضا، ومنهم على سبيل الذّكر عباس حسن الذي يقول : « إنّ منزلة النّحو من العلوم اللسانيّة منزلة الدّستور من القوانين الحديثة، وهو أصلها الذي تستمد عونه وتستلهم روحه وترجع إليه في جليل مسائلها وفروع تشريعها، ولن

تجد علّما من تلك العلوم يستقل بنفسه عن النّحو، أو يستغني عن معونته أو يسترشد بغير نوره وهداه ».[43] ويعضد هذه الفكرة مهدي المخزومي الذي يرى أنّ مصطلح النّحو معبرا عن مفهوم شامل يعالج صرح اللسان العربي، وينبني على دراسة متكاملة لمستويات اللغة، مثل الصّرف والتّركيب والأسلوب والدّلالة وغيرها... وكذلك دراسة مختلف الأساليب النّحويّة التّقليديّة من توكيد وشرط ونفي واستفهام واستثناء..، واستخدام هذه الأساليب على النّحو الذي يتفق مع ما تتطلّبه مناسبات القول أو حال المخاطب.[44] ولاشك أّن النّظرة الشّموليّة للنحو استلهمها المخزومي من وحي الدّراسة اللغويّة المعاصرة عند اللسانيين الغربيين، الذين يرون أنّ مصطلح (grammaire) ذو طابع شمولي يتوجه إلى وصف بنيّة اللغة الطّبيعيّة بشكل عام، فيعالج مكونات مستوياتها ووظائف جزيئاتها. والتّثمين ذاته نجده عند بعض المستشرقين ومنهم على سبيل الذّكر لا الحصر المستشرق الهولندي دي بور الذي يصف النّحو العربي بقوله: «علّم النّحو أثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقّة في الملاحظة، ومن نشاط في جميع ما تفرق، وهو أثر يرغم النّاظر فيه على التّقدير له ويحق للعرب أن يفخروا به » .[45]

6-أهميّة المعرفة النّحويّة في اكتساب اللغة: لقد نوّه كثير من العلّماء والدّارسين بأهميّة النّحو، ودوره في عمليّة اكتساب اللغة عن طريق تمثل بنياتها واستظهارها، فإذا كانت اللغة عبارة عن سلسلة كلاميّة منطوقة أو مكتوبة يستعملها الأفراد لغرض التّبليغ والتّواصل، وكان النّحو ذلك العلّم الذي يقيد هذا الكلام بقوانين و أحكام خاصّة فإنّ ذلك معناه أنّ كليهما يعتمد على الآخر فليس ثمّة لغة بلا نحو ولا نحو بلا لغة فالعلاقة تقوم بينهما على التّلازم والاستدعاء بحيث لا يمكن الفصل بينهما، فتعلّم النّحو ضرورة لمعرفة اللغة التي نتكلمها ونستعملها فهو كاشف لطبيعتها وسننها وأساليب نطق أصحابها بها وهو أيضا أساس استقامة معاني الكلمات مفردة ومركبة داخل الجمل، وبه يضبط الكلام لفظا وقراءة وتحريرا ويؤكّد ابن خلدون أنّ علّم النّحو أهم من اللغة ذاتها؛ إذ في جهله الإخلال بالتّفاهم جملة وليس كذلك

اللغة.[46] فوظيفة النّحو حسب ابن جني تكمن من جهة في تدريب وتوجيه المتعلّم (منتج الكلام) إلى« انتحاء سمت كلام العرب»،[47] ومن جهة أخرى حتى يلتحق «مَن ليس من أهل اللغة العربيّة بأهلها في الفصاحة فينطق بها ».[48] فالنّحو أساس بناء الجملة العربيّة ذلك أنّه لابد لكل لغة من قوانين تنظمها وتجمع شواردها وتوحد ظواهرها المختلفة، لأنّ تلك القوانين هي الوسائل الإجرائيّة التي تعين المتعلّم على كشف مكنون النّفس بلغة صحيحة سليمة فغايته إذن هي فهم تحليل بناء الجملة تحليلا لغويا يكشف عن أجزائها، ويوضّح عناصر تركيبها، وترابط هذه العناصر بعضها مع البعض الآخر بحيث تؤدي معنى مفيدا[49].

ومن أجل ذلك كان من الواجب على من أراد معرفة اللغة أن يبدأ بتعلّم النّحو فيكتسب معرفة نحويّة، فهي آليّة منظّمة للغة يحتكم إليها متكلّم اللغة في تحقيق السّلامة والابتعاد عن الخطأ والانحراف الذي كثيرا ما يظهر أثناء الكلام، فهي إذن تمدّه بالقدرة على معرفة صحيح الكلام من فاسده، وعلى إصلاح ما يقوله ومعالجة أخطائه، وتساعده على مواصلة الخطاب من خلال الرّجوع إلى مخزونه الضّمني ولها دور كبير في تسهيل عمليّة التّخاطب؛ والتّفاهم بين أفراد المجتمع أثناء عمليّة التّواصل. وهذا ليس معناها أنّ المعرفة النّحويّة غايّة في حد ذاتها بل هي وسيلة لإيضاح المعاني والتّمييز بينها، ومن أجل ذلك كان تعلّم النّحو غير منفصل عن وظيفة اللغة. يقول ميشال زكرياء معرفا المعرفة النّحويّة هي:» الأداة أو الآليّة التي تتيح للإنسان أن يتكلّم اللغة والتي تحدد شروط التّواصل والتّفاهم وضوابطها بين أبناء اللغة الواحدة[50].

وإضافة إلى الفوائد المتوخاة من تعليم النّحو، فإنّ قواعد اللغة تجعل المتعلّم يحافظ على سلامة اللغة من اللحن والفساد، وتوجهه إلى تعلّم ما يوفر له ضمان الاستعمال الجيد للغة والوقايّة من فساد اللغة وإفسادها، فهي تمثل جهازا يراقب أخطاءه، فإذ أحس بموقف لغوي صعب رجع إلى هذا الجهاز ليصوب أخطاءه، ثم هي تنمي فيه القدرة على التّفكير المنطقي والتّعليل والقياس وذلك يمثّل أسمى الأهداف التي تسعى إليها المناهج التّربويّة ومعنى هذا أن

تدريس القواعد النّحويّة لابد أن يكون مرتبطا بالمواقف التي تستعمل فيها اللغة ضمن مقامات مختلفة وهو ما من شأنه أن يسكب متعلّم اللغة آليات استعمال اللغة إذ بهذا ترسخ تلك القواعد في ذهنه ترسيخا ثابتا لأنّها ارتبطت باستعمالات نمت فكره.

7-دعاوى التيسير بين سوء الفهم وانعدام التّقدير: إنّ الدّعوة إلى تيسير النّحو وتسهيل تعليمه دعوة قديمة جديدة. فهي من جهة قديمة دعا إليها النّحاة الأوائل بعيد مرحلة التّأسيس فالمتتبع لنشأة النّحو ومساره يجد أن بذور هذه الدّعوة ظاهرة في مؤلّفات النّحاة القدامى أمثال أبي عمر صالح بن إسحاق الجرمي(ت225هـ) في كتابه" مختصر نحو المتعلّمين"، وأبي عباس محمّد بن يزيد المبرد (ت285هـ) في كتابه "المدخل في النّحو" ومحمّد بن كيسان (ت299هـ) في كتابه "مختصر في النّحو"، والزّجاجي(ت337هـ) من خلال مؤلّفه "الجمل" وأبي جعفر النّحاس (ت338هـ) من خلال كتابه" التّفاحة في النّحو" وأبي بكر الزّبيدي(ت379هـ) في كتابه " الواضح في علّم العربيّة "، وابن جني (ت392هـ) من خلال كتابه" اللمع في العربيّة ". وحقيق بنا أن نشير هنا إلى أنّ محاولات هؤلاء هي محاولات صادقة تنم عن حبهم للغة العربيّة وغيرتهم عليها وليس أدل على ذلك من أنّهم كانوا يسعون لتقريب النّحو من المتعلّمين، علّماً منهم أنّ النّحو فيه بعض التّعقيد ولذلك كانوا ينتقون من مواضع النّحو المبثوثة في الكتب المفصلة ما يناسب المستويات التّعليميّة ويتجنبون التّعمق والإطالة ويستعينون على توضيح القواعد والأحكام بالشّواهد البسيطة الواضحة.

غير أنّ الثّورة الحقيقيّة على نهج النّحاة القدامى هي تلك التي تبنتها طائفة من النّحاة المتأخرين والتي مسّت بعض الأسس التي بنى عليها الأقدمون قواعدهم ورتبوها مطالبة بإلغاء بعضها، أو حذف بعضها الآخر، الأمر الذي جعل ورثة هذا العلّم ينكر تلك الثّورة ويقابلها بعنف ويصنفها عقوقا لجهود الأوائل، ولعلّ ابن مضاء القرطبي (592هـ) أكثر أولئك الثّائرين في وجه النّحاة منكرا بعض قياساتهم لاسيما العقليّة منها وقد أعتبر كتابه" الرّد على النّحاة" أخطر محاولة نقديّة للنحو العربي بحجّة إصلاحه وتيسيره كيف لا؛ وقد انطلق صاحبها من

مذهبه الظّاهري، فانتقد بعض نظريات النّحو كنظريّة العامل والأقيسة النّحويّة، وفكرة الحذف والتّنازع في العمل والتّعليل وغيرها متهما إياها بالقصور. يقول عبده الرّاجحي موضحا الغايّة من وراء تأليف هذا الكتاب:« وقد كتب كتابه يهدم فيه الأصول التي قام عليها النّحو العربي في المشرق، وليس عجيبا لدى المتتبعين للفكر الإسلامي أن يتصدى ابن مضاء لنقد النّحو العربي فالحق أنّه لم يكن يقصد هدم النّحو لذاته وإنّما كان يهدف إلى هدمه باعتباره وسيلة لفهم الفقه المشرقي الذي اشترك هو في الثّورة عليه»[51].

ومن جهة ثانيّة فهي دعوة جديدة؛ حيث اتجه هذا الاتجاه بعض اللسانيين العرب المحدثين مصورين للناس أنّهم يقدّمون شيئا جديدا على النّحو العربي ومنهم على سبيل الذّكر شوقي ضيف(2005/1910)، الذي يعد من أوائل اللسانيين في القرن العشرين الذين فجروا قضيّة تيسير النّحو، ودعوا إلى ضرورة إعادة النّظر في مسلّماته ومسائله. وكذلك فعل إبراهيم مصطفى الذي أصدر كتابه" إحياء النّحو "على أساس هدم نظريّة العامل.[52]وقد تركزت أهدافه في عدد من الأمور منها: أنّه كشف فيها ما قصر فيه النّحويون، وما زعموا، وما أثبتوا وأبان عن رأيه في نقض كثير من ذلك وكان قاسياً على النّحاة المتقدّمين جميعا هاجمهم في غير مواربة، وطعنهم في غير لين ولا رحمة، لكنّ هذا الكتاب في نظر عبده الرّاجحي لم يؤد إلى النّتائج التي كان يهدف إليها أصحاب التّجديد.[53] ثم توالتّ المؤلّفات في هذا الصّدد نذكر منها على سبيل الذّكر لا الحصر كتاب "اللغة العربيّة معناها ومبناها "لتمام حسان وكتابي" في النّحو العربي، نقد وتوجيه" و"في النّحو العربي، قواعد وتطبيق" لمهدي المخزومي وكتاب "مناهج تجديد في النّحو والبلاغة والتّفسير والأدب" لأمين خولي... وغيرهم كما عمدت بعض الهيئات العلّميّة العربيّة إلى دعم أفكار هؤلاء بعقد العديد من المؤتمرات والنّدوات واللقاءات في أنحاء مختلفة من العالم العربي نذكر منها ندوة تيسير تعليم النّحو، نظّمها اتحاد المجامع اللغويّة العلّميّة العربيّة سنة 1976م.

وتجدر الإشارة هنا؛ إلى أنّ أقل ما يمكن أن يقال عن هذه المحاولات أنّها محاولات قاصرة تنم عن سوء الفهم وانعدام التّقدير، فقد زعموا أنّ في النّحو العربي قصورا يوجب الإصلاح ويدعو إلى إعادة النّظر في بعض نظرياته. يقول عبده الرّاجحي مبينا الخلط والتّخليط الذي وقعوا فيه إذ جمعوا في نظره بين النّحو وتعليم النّحو: « من أجل ذلك جرت محاولات غير قليلة لإصلاح النّحو أو تيسيره، لكنّها جمعيها أخطأت البدايّة فلم تصل إلى الغايّة، ذلك أنّها ظنت أن تيسير النّحو يسر تعليمه وهذا غير صحيح، فقد بينا أنّ ثمة فرقا جوهريا بين النّحو وتعليم النّحو الأوّل علّم النّحو وهو علّم يقدّم وصفا لأبنيّة اللغة، وهو حين يفعل ذلك إنّما يلجأ إلى عزل الأبنيّة من سياق الاستعمال ويضعها في إطار التّعميم والتّجريد، أمّا تعليم النّحو فشيء آخر نشأ عنه علّم أشرنا إليه باسم النّحو التّعليمي(pedagogical grammar) وهو يأخذ من الوصف الذي توصل إليه علّم النّحو، لكنّه لا يأخذه كما هو إنّما يطوعه لأغراض التّعليم ويخضعه لمعايير أخرى تستعين بعلّم اللغة النّفسي في السّلوك اللغوي عند الفرد وبعلّم اللغة الاجتماعي في الاتصال اللغوي وبعلوم التّربيّة في نظريات التعلّم وإجراءات التّعليم، وكل ذلك كان غائبا عن محاولات الإصلاح والتيسير، ومن ثم لم تؤد هذه المحاولات إلى تغيير في المستوى العام لتعليم العربيّة اللهم إلاّ إثارة بعض البلبلة».[54] وعلى هذا النّهج سار عزّ الدّين مجدوب في مؤلّفه "المنوال النّحوي العربي قراءة لسانيّة جديدة"، حيث أكد فشل مختلف المحاولات الدّاعيّة إلى تيسير النّحو، بحجّة أنّ أصحابها انطلقوا من منطلقات قاصرة تخلو من العمق، فهو يرى أنّه وبعد تحليل كثير من المحاولات التي طارت شهرتها في الوطن العربي تبين لنا فشلها لأنّ أصحابها انطلقوا في قراءاتهم النّقديّة للتراث من منطلقات قاصرة، تنم عن غياب تصور واضح للعلّم وما تقتضيه التّطبيقات التّربويّة من مبادئ أساسيّة في صناعة التّعليم، إذ تحولت خاصيّة الوضوح والبساطة والسّهولة إلى مقاييس يعتمد عليها في تقييم التّراث النّحوي وأصبح في نظر بعضهم كل أصل من أصول النّحو أو مسألة من مسائله أو باب من أبوابه لا يفيد مباشرة في التّعليم ترفا لا فائدة منه ولغوا ينبغي

تجنبه واقتنع الجميع أنّ نظام العوامل هو المسؤول عن ذلك، وافترضوا أنّ ما عاب به اللسانيون الغربيون تراثهم اللغوي (الإغريقي والرّوماني) ينسحب انسحابا كليا على النّحو العربي الأصيل، وكانت حاجة اللغة العربيّة في زعمهم إلى منهج وصفي تماثل حاجة الأنحاء الأوربيّة القديمة. [55]

خاتمة: : وختاما لهذه الورقة البحثيّة يمكن القول؛ أنّ النّحو العربي ليس علّما صرفا قائما على قواعد جامدة، أو قوالب ساكنة لا تقبل التّغيير، ولا نحوا تعليميا محضا، فهو يتّسع لهما معا كونهما متعاضدين متكاملين، لاسيما إذا علّمنا أنّه لا تعارض في حضور الغايّة العلّميّة إلى جانب الغايّة التّعليميّة، فالنّحاة احتاجوا إلى وسيلة تحفظ لغتهم من اللحن، فتوصلوا إلى علّم قائم بذاته له أصوله ومناهجه، فهم وإن كانوا يقصدون تلقين الفصاحة ووضع حد للحن، فإنّهم وجدوا أنفسهم يكشفون أسرار اللغة العربيّة ويفسرون حقائقها بطريقة علّميّة، كما ينبغي إدراك أنّ النّحو جهاز كامل ومتكامل، وأنّ أي حذف اعتباطي غير مدروس لأيّة نظريّة من نظرياته أو باب من أبوابه سيؤدي لا محالة إلى إفساده والإخلال به، ذلك أنّ أزمة النّحو لا تكمن في حقيقة الأمر في النّحو في حد ذاته كعلّم يسعى إلى وصف أبنيّة اللغة واستنباط القواعد معزولة عن سياق الاستعمال وإنّما تكمن في:

1–عدم الإلمام بجوانب إشكاليّة اللغة العربيّة؛ حيث يقتصر تناولها عند الكثير من الدّارسين على الجوانب التّعليميّة والمصطلحيّة دون الخوض في دراسة علاقتها بالدّين والسّياسة والوطنيّة والقوميّة ذلك أنّها تمثّل مقوّما من أهم مقومات كيان الأمّة فهي الحاملة للثقافة والمكون لبنيّة التّفكير.

2–سوء التّشخيص لطبيعة الدّاء اللغوي، إذ يوجه بعض الباحثين سهامهم إلى اللغة العربيّة ويتهمونها بتهم عدّة منها أنّها تحمل بداخلها كوامن التّخلف الفكري والعجز عن مواكبة مستجدات العصر.

3-الانبهار بثقافة الغرب ولغاته، وتدهور الاهتمام باللغة العربيّة والاعتزاز بها تحت تأثر بعض المثقفين بتلك بالصّيحات الدّاعيّة تارة إلى تفضيل اللغات الأجنبيّة وتارة أخرى بتصديق ادعاء صعوبة النّحو العربي، بالرّغم من الحقيقة العلّميّة التي أجمع عليها الباحثون هي أنّ التّعليم بغير اللغة الأمّ يغلق مفاتيح الفكر، ويعوق عمليّة الإبداع والابتكار لدى المتعلّمين.

4-غياب الإرادة الحقيقة للإصلاح اللغوي، فالمناهج المدرسيّة في مختلف البلاد العربيّة تتجاهل الآليات والطّرق الحديثة في التّخطيط والانتقاء والعرض والتّرسيخ التي يمكن أن تستغل لأغراض تعليميّة من شأنها أن تفيد متعلّمي اللغة العربيّة ولا تسند صناعتها وإعداد محتوياتها وصناعة الطّرائق التّعليميّة إلى ذوي الاختصاص، ممّن تسلحوا بالمعارف الحديثة في مجال العلوم اللسانيّة وتعليميّة اللغات والأدبيّة.

6. قائمة المراجع:

1-أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضيّة التّأثير والتّأثر عالم الكتب القاهرة، الطّبعة الثّامنة ، 2003م.

02-الأنباري، كمال الدّين أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق : محمّد أبو فضل إبراهيم القاهرة ، 1967م.

3-أنور الجندي ، اللغة العربيّة بين حماتها وخصومها، مطبعة الرّسالة القاهرة

4-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق يحي الهاشمي، دار ومكتبة الهلال المجلد الأوّل 1997م.

5-الجرجاني أبو بكر عبد القادر، دلائل الإعجاز في علّم المعاني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلّميّة بيروت لبنان، الطّبعة الأولى، 2001م.

6-الحيوان، تحقيق: يحي الهاشمي، دار ومكتبة الهلال، المجلّد الأوّل 1997م.

7-ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجار، المكتبة العلّميّة بيروت لبنان، المجلد الأوّل.

8–جون جوزيف، اللغة والهويّة، ترجمة عبد النّور خراقي، سلسلة عالم المعرفة الكويت العدد342، آب/ أغسطس 2007م.

9–حامد فؤاد، تأصيل الحضارة العربيّة الإسلاميّة، بحث في مجلة المستقبل العربي بيروت أيلول، 1980م.

10–خالدّ عبد الرّحمان العك، أصول التّفسير وقواعده، دار النّفائس بيروت، الطّبعة الثّانيّة 1406هـ، 1986م.

11–ابن خلدون عبد الرّحمان، المقدّمة " المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، مطبعة عبد الرّحمن محمّد، د ت، القاهرة.

12–خلف الأحمر، مقدمة في النّحو، تحقيق عز الدّين التّنوخي، دمشق سوريا 1961م.

13–دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمّد أبو ريدة، طبعة لجنة التّأليف القاهرة.

14–الزّجاجي، أبو القاسم عبد الرّحمن، الإيضاح في علل النّحو، تحقيق: مازن المبارك بيروت، الطّبعة الثّانيّة 1982م.

15–السّيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، أخبار النّحويين البصريين، تحقيق: محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل لبنان، الطّبعة الأولى، 2004م.

16–السّيوطي، جلال الدّين، الاقتراح في علّم أصول النّحو، تحقيق: محمّد حسن إسماعيل الشّافعي، دار الكتب العلّميّة بيروت، الطّبعة الأولى، 1998م.

17–ظبيّة سعيد السّليطي، تدريس النّحو العربي في ضوء الاتجاهات الحديثة، الدّار المصريّة اللبنانيّة القاهرة مصر، الطّبعة الأولى.

18–عباس حسن، اللغة والنّحو بين القديم والحديث دار المعارف القاهرة، د ط 1966م.

19–عبد العال سالم مكرم، الحلقة المفقودة في تاريخ النّحو العربي، مؤسّسة الرّسالة بيروت لبنان، الطّبعة الثّانيّة، 1993م.

20–عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علّم النّحو والصّرف، دار النّهضة العربيّة بيروت.

21–عبده الرّاجحي، دروس في المذاهب النّحويّة، دار النّهضة العربيّة بيروت لبنان الطّبعة الثّانيّة، 1988م.

22–علّم اللغة التّطبيقي وتعليم العربيّة، دار النّهضة العربيّة بيروت لبنان الطّبعة الثّانيّة سنة الطّبع، 2004م.

23–عز الدّين مجدوب، المنوال النّحوي العربي، قراءة لسانيّة جديدة، دار محمّد علي الحامي تونس، الطّبعة الأولى.

24-أبو علي الفارسي، التّكملة، وهي الجزء الثّاني من الإيضاح العضدي، تحقيق: حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر، 1984م.

25-عمر لحسن، النّحو العربي وإشكاليات تدريسه، المجلس الأعلى للغة العربيّة ندوة تيسير النّحو الجزائر 2001م.

26-ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء، الصّاحبي في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلّميّة بيروت، الطّبعة الأولى 1997م.

27-محمّد حماسة عبد المطلب، بناء الجملة العربيّة، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع القاهرة، د. ط ،2003م.

28-محمّد فتيح، في الفكر اللغوي، دار الفكر العربي القاهرة، الطّبعة الأولى 1989م.

29-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، الطّبعة الثّالثّة، الجزء الخامس عشر 1994م.

30-مهدي المخزومي، في النّحو العربي نقد وتوجيه، المكتبة العصريّة صيدا بيروت 1964م.

31-ميشال زكرياء، مباحث في النّظريّة الالسّنيّة وتعليم اللغة، المؤسّسة الجامعيّة للنشر والتّوزيع، الطّبعة الثّانيّة، 1405هـ، 1985م.

32-ابن النّديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران.

هوامش:

1-جون جوزيف، اللغة والهويّة، ترجمة عبد النّور خراقي، سلسلة عالم المعرفة الكويت، العدد 342، آب/ أغسطس 2007م، الصّفحة 35/ 48.

2-أنور الجندي، اللغة العربيّة بين حماتها وخصومها ، مطبعة الرّسالة القاهرة الصّفحة28.

3-حامد فؤاد، تأصيل الحضارة العربيّة الإسلاميّة، بحث في مجلة المستقبل العربي بيروت ، أيلول ،1980م الصّفحة4.

4-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، الطّبعة الثّالثّة، الجزء الخامس عشر، "مادة نحا"، 1994م الصّفحة 310/309. بتصرف

5-مهدي المخزومي، في النّحو العربي، نقد وتوجيه، المكتبة العصريّة صيدا، بيروت 1964م، الصّفحة111.

6–السّيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، أخبار النّحويين البصريين، تحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل لبنان، الطّبعة الأولى، 2004م، الصّفحة15.

7– المرجع نفسه، الصّفحة18.

8–الزّجاجي، أبو القاسم عبد الرّحمن، الإيضاح في علل النّحو، تحقيق : مازن المبارك بيروت الطّبعة الثّانيّة 1982م، الصّفحة9 .

9–أبو علي الفارسي، التّكملة، وهي الجزء الثّاني من الإيضاح العضدي، تحقيق: حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر، 1984م، الصّفحة3.

10–ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجار، المكتبة العلّميّة بيروت لبنان، المجلد الأوّل، الصّفحة34 .

11–السّيوطي، جلال الدّين، الاقتراح في علّم أصول النّحو، تحقيق: محمّد حسن إسماعيل الشّافعي، دار الكتب العلّميّة بيروت، الطّبعة الأولى،1998م الصّفحة15/14.

12–عمر لحسن، النّحو العربي وإشكاليات تدريسه، المجلس الأعلى للغة العربيّة ندوة تيسير النّحو الجزائر 2001م، الصّفحة510.

13–ابن خلدون عبد الرّحمان، المقدّمة" المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، مطبعة عبد الرّحمن محمّد القاهرة د، ت، الصّفحة410 . بتصرف.

14–حلمي خليل، العربيّة وعلّم اللغة البنوي، دراسة في الفكر الغوي الحديث، دار المعرفة الجامعيّة الإسكندريّة د. ط 1995م، الصّفحة15.

15–عبد العال سالم مكرم، الحلقة المفقودة في تاريخ النّحو العربي، مؤسّسة الرّسالة بيروت لبنان، الطّبعة الثّانيّة، 1993م، الصّفحة 19/18.

16–ظبيّة سعيد السّليطي، تدريس النّحو العربي في ضوء الاتجاهات الحديثة، الدّار المصريّة اللبنانيّة القاهرة مصر، الطّبعة الأولى، الصّفحة18.

17–ابن خلدون، المقدّمة، الصّفحة410 . بتصرف.

18–المرجع نفسه، الصّفحة 413/412.

19-عبده الرّاجحي، دروس في المذاهب النّحويّة، دار النّهضة العربيّة بيروت لبنان، الطّبعة الثّانيّة، 1988م الصّفحة 20.

20-خالدّ عبد الرّحمان العك، أصول التّفسير وقواعده، دار النّفائس بيروت، الطّبعة الثّانيّة 1406هـ، 1986م الصّفحة 159.

21-ابن النّديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، الصّفحة95.

22-أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضي التّأثير والتّأثر عالم الكتب القاهرة، الطّبعة الثّامنة ، 2003م، الصّفحة79.

23-المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

24-المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

25-المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

26-عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علّم النّحو والصّرف، دار النّهضة العربيّة بيروت لبنان الصّفحة 141.

27-عمر لحسن، النّحو العربي وإشكالات تدريسه، الصّفحة510.

28-مهدي المخزومي، في النّحو العربي، نقد وتوجيه، الصّفحة111.

29-ابن جني، الخصائص، الصّفحة34.

30-الأنباري، كمال الدّين أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمّد أبو فضل إبراهيم القاهرة 1967م، الصّفحة390 .

31-ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصّاحبي في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلّميّة بيروت، الطّبعة الأولى ، 1997م الصّفحة.66

32-الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علّم المعاني، تحقي:ق عبد الحميد الحميد هنداوي، دار الكتب العلّميّة بيروت لبنان، الطّبعة الأولى، 2001م الصّفحة8.

33-المرجع نفسه، الصّفحة9/8.

34-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: يحي الهاشمي، دار ومكتبة الهلال المجلد الأول 1997م الصّفحة91.

35–محمّد فتيح، في الفكر اللغوي، دار الفكر العربي القاهرة، الطّبعة الأولى 1989م الصّفحة10.

36–خلف الأحمر، مقدّمة في النّحو، تحقيق: عز الدّين التّنوخي دمشق سوريا 1961م الصّفحة33.

37–السّيوطي، الاقتراح في علّم أصول النّحو، الصّفحة11.

38–الجرجاني، دلائل الإعجاز، الصّفحة94 .

39–المرجع نفسه، الصّفحة371/370 .

40–المرجع نفسه، الصّفحة79/80 .

41–ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللغة العربيّة، الصّفحة43 .

42–ابن خلدون، المقدّمة، الصّفحة565.

43–عباس حسن، اللغة والنّحو بين القديم والحديث، دار المعارف القاهرة، د، ط 1966م الصّفحة60 .

44–مهدي المخزومي، في النّحو العربي، نقد وتوجيه، الصّفحة18/17.

45–دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمّد أبو ريدة، طبعة لجنة التّأليف القاهرة الصّفحة40.

46–ابن خلدون، المقدمة، الصّفحة 565بتصرف.

47–ابن جني، الخصائص، الصّفحة34.

48–المرجع نفسه ، الصّفحة نفسها.

49- محمّد حماسة عبد المطلب، بناء الجملة العربيّة، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع القاهرة ، د.ط، 2003م الصّفحة19.

50–ميشال زكرياء، مباحث في النّظريّة الالسّنيّة وتعليم اللغة، المؤسّسة الجامعيّة للنشر والتّوزيع، الطّبعة الثّانيّة، 1405هـ ،1985م، الصّفحة75.

51–عبده الرّاجحي، دروس في المذاهب النّحويّة، الصّفحة171.

52–المرجع نفسه، الصّفحة172.

53–المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

54–عبده الرّاجحي، علّم اللغة التّطبيقي وتعليم العربيّة، دار النّهضة العربيّة بيروت لبنان الطّبعة الثّانيّة 2004م، الصّفحة103.

55–عز الدّين مجدوب، المنوال النّحوي العربي، قراءة لسانيّة جديدة، دار محمّد علي الحامي تونس، الطّبعة الأولى الصّفحة48 بتصرف.